المقتطف

الجزء الثالث من المجلد التسعين

١ مارس سنة ١٩٣٧ — ٢٨ ذي الحجة سنة ١٣٥٥

على ذكي فتوى

تحديد النسل

وآثاره الصحية والاجتماعية والدولية

صدر حضرة صاحب الفضيلة مفتي الديار المصرية في يوم ٢٩ يناير سنة ١٩٣٧ فتوى في هذا الموضوع لخصها جريدة « المصري » في عددها الصادر في ٢ فبراير في ما يلي : —

« من أرباب العائلات الكبيرة بين المسلمين وغير المسلمين أفراد كثيرون يشعرون بوطأة الازمة الاقتصادية ويخشون للمستقبل وقفات الآباء من طعام وشراب وتعليم وقد دفعهم هذا الشعور الى التفكير الطويل في الحذر والحيطة ومن الأمور الجوهرية التي فكّر فيها هؤلاء مسألة تحديد النسل فمن كان عنده ثلاثة من الأولاد مثلاً يلاقي الويل لكي يجعل منهم شباناً صالحين في بناء الوطن ولكن أغلبية هؤلاء جميعاً يعرفون ان لهم ديناً قيماً يريدون التوفيق بين نصوصه وتعاليمه وبين هذه المبادىء القاسية

« والى الآن لم يخط أحد من رجال الاسلام في السنين الأخيرة خطوة تشفي غليل هؤلاء جميعاً وتحدد الموضوع تحديداً واضحاً للأهالي والأطباء . وقد اتصل بنا ان حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية أصدر في يوم ٢٩ يناير الماضي فتوى خطيرة في هذا الموضوع يفهم منها :

« أولاً — يجوز لكل من الزوجين أن يتخذ من الوسائل ما يحول دون حمل زوجته

« ثانياً — يجوز لكل من الزوجين قبل نفخ الروح في الجنين ، وهذا يحتاج الى عدة أسابيع كما قرر الأطباء أن يتخذ من وسائل الادوية (من غير اضرار بصحة الزوجة طبعاً) ما يمنع الحمل عند وجود عذر مقبول كما مثل لهُ وهذا على رأي بعض الفقهاء

« ثالثاً — باجماع الفقهاء لا يجوز عمل او تصرف من شأنه اسقاط الجنين بعد نفخ الروح فيه

***

ونحن لا نعرض للموضوع من حيث علاقتهُ بدين من الاديان السموية لان المقتطف مجلة غير دينية ، ولا من حيث تطبيقهُ في هذه البلاد او غيرها من البلدان ، لان مشكلة السكان والحث على زيادتهم كما في المانيا وايطاليا او ترك حبلهم على الغارب كما في فرنسا وانكلترا وغيرهما من الخطط التي تقررها بعض الحكومات متى رأت الحاجة تلجئها الى ذلك . ولكن للموضوع نواحيهُ الصحية والاجتماعية والدينية ، وهي النواحي التي ينبغي ان نعالجها باوجاز في هذا المقال ، وليس لنا غير الجمع شتات الموضوع من مختلف الكتب والمجلات ، جمعاً حاولنا ان نحفظ فيهِ التوازن بين اصحاب الآراء المختلفة والمذاهب المتناقضة

ان الحركات الاجتماعية الخطيرة في تاريخ ارتقاء العمران تنبعث في الغالب عن دافع نفسي يملك مشاعر الانسان فيأخذ على العقل سبيل التفكير المجرَّد . فهي آناً حركات يولدها ويمتها في سبيل التضحية دينية كالصهيونية او شعور بحق مهضوم كالثورة الفرنسية او تصوُّر رفيع للمثل الأعلى ينبثُّ في جوانب النفس يدفعها في سبيل تحقيقهِ غير ملتفتة الى ما يناله من أذى واضطهاد كالاشتراكية وما اليها . على ان حركة تحديد النسل تختلف عن هذه الحركات الاجتماعية في انها تنبع من معرفة علمية بوجود مخاطر صحية وسياسية واقتصادية تنجم عن كثرة النسل وتوالدهِ بعجب اجتنابها ، مع انها في دورها الأخير تحوَّلت تحوُّلاً كبيراً لما نالهُ اصحابها من مقاومة واضطهاد وسجن وغرامة ولكن اساسها العلمي يجب ان لا يغفل حين بسط مبادئها والالمام بسير اقطابها

وفكرة تحديد النسل ، ترتدُّ كفكرة اجتماعية الى مفكري اليونان الاقدمين بل والى ما قبل اليونان . اذ من المعروف ان القبائل التي لا تزال الى عصرنا الحاضر تعيش على البداوة تميل احياناً الى تحديد النسل بوسائل وأساليب فظة همجية اشهرها قتل الجنين او الطفل الوليد . وقد ذكر برمي سمث في مقال لهُ عن سكان جزيرة هورن في غرب المحيط الهادي نشر في جورنال الجمعية البولينيزية انهُ ليس من بواعث خجل المرأة هناك ان تقتل وليدها وان هناك غير امرأة واحدة قتلت من ولدها ستة . ومن وسائلهم سحق الجنين بضغط جسم المرأة حيث الرحم بحجارة ثقيلة . وقد اشار الاستاذ كارصوندرز في مؤلفه « مشكلة السكان » الى ان قبائل بدائية مختلفة تعلم كيف تمنع الحمل وان ولدها قليل ، ولكنهُ لم يبسط الكلام في هذه

الوسائل . والكتب التي تعالج هذا الموضوع وتفصل التقاليد المتبعة في القبائل الهمجية كثيرة . اما في عهد اليونان فقد ذكر فلوطرخس مؤرخ العظماء الأقدمين ان ليكرغوس مشترع سبارطة قضى بقتل جميع الأطفال الضعاف البنية رغبةً منهُ في تنشئة شعب قوي . وأدرك افلاطون وارسطوطاليس الخطر الناجم عن كثرة المولد ، وخصوصاً من كان منهم في الأسرة الضعيفة فاقترحا أساليب متطرفة مختلفة لاجتنابه . ولكن طائف النسيان طاف بهذه الفكرة في القرون الوسطى كما طاف باكثر الآراء التي ابتدعتها عقول اليونان وتخيلاتهم . حتى بعد نهضة العلم والفن في العصور الحديثة ظلت «كثرة النسل» شعاراً لأمم اوربا لان المفكرين حينئذٍ كانوا يرون عظمة كل امة وقوتها مرتبطين اوثق ارتباط بعدد سكانها ، ولم يشذَّ منهم الا اللورد باكون الفيلسوف الانكليزي الذي اشار اشارات متفرقة في مؤلفاته الى خطر النسل الكثير في اضعاف الشعب وافقارهِ . وظلَّ القول بأن قوة الأمة الحربية وثروتها القومي مرتبطين بكثرة سكانها حتى القرن التاسع عشر ، لما قام مونتسكيو في فرنسا وبنيامين فرنكلن في اميركا وغيرهما في بلدان اخرى يحاولون ان يمشوا آراء افلاطون وارسطوطاليس من مدفنها مبينين ان في سرعة ازدياد النسل في أية أمة خطراً على رفاهيتها

ذلك انهُ اذا زاد عدد السكان في بلد من البلدان زاد عمرانهُ ولكن الى حدٍّ ما . لان كثرة الناس في البلاد تؤدي الى اتساع نطاق العمل والعناية باستنباط ثروة الارض ورفع مستوى المعيشة . لذلك تعنى الحكومات التي تحكم بلداناً مترامية الاطراف قليلة السكان بدعوة الناس الى الهجرة اليها وترغيبهم في ذلك . ولكن لا يلبث ازدحام السكان ان يبلغ حدًّا تصبح الزيادة بعده خطراً على البلاد لانها تخفض مستوى المعيشة بدلاً من ان ترفعهُ . ويكثر طلاب العمل حتى يزيدوا على ما تتسع لهُ المعامل والمتاجر . فترتفع بينهم مبادىء الشيوعيين والفوضويين ويكون المرتع خصباً أو يتجهون الى التوسع والتبسط بالقوة فتكون الحروب واهوالها . وقد يتعذر تعيين هذا الحدّ الفاصل بين الحالين . لانهُ يختلف باختلاف البلدان وما بلغتهُ من الرقي الصناعي والتجاري والزراعي . فبلاد في عرف الكنديين تحسب غاصة بالسكان بحسبها الصينيون قليلتهم لان هؤلاء تعودوا ان يروا ٤٠٠ نفس او اكثر مزدحمين في بقعة من الارض مساحتها ميل مربع أو اقل

وعلى الرغم من ذلك اجمع علماء الاجتماع والاقتصاد على وجود هذا الحد في احوال معينة فيبلغ عدد السكان عنده مبلغاً يمكنهم من التمتع بأرقى وسائل العمران وأعلى مستوًى اقتصادي في معايشهم . وهذا العدد يتغير في كل بلاد بتقدم الحضارة فيها . فلو ان سكان الولايات المتحدة الاميركية كانوا منذ مائة سنة ١٣٠ مليوناً — كما هم الآن — لما كان ملاك الثروة والرخاء مرفرفاً فوقهم كما هو مرفرف الآن وما نسمع عنهُ من كثرة العمال المتعطلين عن العمل ينهم يرتدُّ الى سوء توزيع الثروة لا الى

شدة ازدحام البلاد بأبنائها . وبلجيكا التي تكاد تعض بسكانها اكثر رخاء من بلاد فارس . مع ان ٦٥٩ نفساً من سكان الاولى يقطنون في ما مساحته ميل مربع واحد من الارض يقابلهم ١٦ في الثانية

فاذا كانت البلدان المزدحمة بالسكان غير منتظمة انتظاماً اقتصادياً دقيقاً وعرضة في كل آن لانقلابات سياسية خطيرة لم يشعر الشعب شعوراً عاماً بازدحامه ووجوب توسعه . لانهُ لا يجد متسعاً كافياً من الوقت للانصراف الى التأمل وادراك ان نطاق العمل في بلاده لا يتسع لجميع افراد الامة لكثرتهم . فاذا انتظمت هذه البلدان واستدّ فوق ربوعها رواق السلام والطمأنينة أدرك أفراد الشعب ان الارض لا تتسع لهم ليجنوا من عملهم فيها ما يؤهلهم لمكانة بين الشعوب كمكانة جيرانهم فينظروا نظرة الطمع الى البلدان التي يمكن ان تكون منفذاً لهم

فايطاليا مثلاً لما وجدت نفسها تكاد تنفجر من كثرة السكان بالقياس الى موارد العيش فيها طلبت أرضاً تجعلها منفذاً لفلايين من أبنائها وقد قال السنيور موسوليني في ذلك «يجب على ايطاليا ان تتوسع والاّ انفجرت » ولعل هذه الفكرة هي أقوى العوامل التي كيفت سياسة ايطاليا الخارجية في السنوات الاخيرة . وما يصدق على ايطاليا من هذا القبيل يصدق على المانيا واليابان

وقد كتب أحد الفلاسفة الاجتماعيين المحدثين كتاباً قال فيه ان الانحاء من البلدان المزدحمة بالسكان الى البلدان قليلة السكان وما ينشأ عن ذلك من التصادم اكبر باعث على الحرب

ولكن القول بتحديد النسل في العصور السابقة ظلّ يتراوح بين الموت والحياة حتى جاء الآب « مالتوس » في آخر القرن الثامن عشر (١٧٩٨) ميّزاً ان السكان يزدادون زيادة هندسية . وأما الموارد الغذائية فلا تزداد الاّ زيادة حسابية . ولذلك لا بدّ ان يجيء يوم يبلغ فيه سكان الأرض عدداً لا تكفي موارده لتغذيته . وأودع رأيهُ هذا كتابهُ الذي موضوعهُ « رسالة في مبادىء السكان » . ولما كان نشر هذا الكتاب موافقاً لذيوع المبادىء التي قامت عليها الثورة الفرنسية عني به المفكرون والكتّاب فراج في فرنسا وأخذ بمبادئه اشرافها وعامتها ، وذلك لأن وسائل مختلفة كانت قد استبطت فيها لمنع الحمل وذاعت بين طبقة الأشراف ، ولان عامة الأمة الفرنسية اقتنعت بوجوب الاكتفاء بالاسرة الصغيرة منعاً لتقسيم الارض التي يملكها الأب على أبنائه ، وهذا يعلّل تناقص متوسط المواليد في فرنسا من ذلك الحين . على ان وسائل منع الحمل لم تكن معروفة خارج فرنسا ولذلك أشار الاب مالتوس «بالامتناع عن الزواج» أو « تأخير الزواج» لمنع ازدياد النسل ازدياداً سريعاً . وجاء بعدهُ فريق النفسيين الذين جعلوا شعارهم « الخير الاكبر للعدد الاكبر » فدعوا الى تحديد النسل . ومع ان مذهب مالتوس في ازدياد النسل وازدياد الغذاء قد قلب رأساً على عقب بعد الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر ، ظلّت النتائج التي وصل اليها عن الخطر الاجتماعي الناجم عن كثرة النسل سليمة على قدمها وتقلب الاحوال عليها

ولا يخفى ان آراءنا في الفضائل الاجتماعية تتغير بتغير العصور . فالمرأة التي كانت في فجر التاريخ تعترض على قتل ولدها ، في قبيلة جرت على ذلك ، كانت امرأة غير فاضلة في عرف أقاربها وجيرانها . كذلك كانت كل امرأة اسبرطية تحاول ان تمنح ابنها الضعيف من الشدائد التي كان يعرض لها لاثبات قوته وحقه في الحياة كاسبرطي . فالفضيلة كانت ، عمل ما يصدر عنهُ الخير للمجتمع ، ولم يكن من خير سكان جزيرة ، او ابناء قبيلة رحالة ان يكثر نسلهم ، كما انهُ لم يكن من خير إسبارطة ان يكون بين أبنائها ضعاف او هذا كان رأي أفلاطون حينئذٍ

ولما ارتقى العمران حل محل قتل الاطفال وسائل مختلفة للاجهاض كان لها مكانها في الفضيلة الاجتماعية في تلك العصور . فلما ذاعت تعاليم المسيحية التي تقول بأن كل نفس قابلة للخلاص صار من الاجرام قتل النفس ، ولذلك أصبح الاجهاض كقتل الأطفال جريمة لا تغتفر . أما دعاة تحديد النسل فيعترفون بوجوب الامتناع عن قتل الاطفال او اجهاض الأمهات ، لان الاول في عرفهم اجرامٌ صريح والثاني علاوة على ما فيهِ من اجرام يعرض الأم للألم المبرح وخطر الموت . ولذلك ينادون بوجوب منع الحمل بطرائق ثبت خلوها من اي اعتراض طبي او صحي او اجتماعي عليها . أما البراهين التي يوردونها لتأييد دعوتهم فكثيرة نلخص منها ما يلي :

يرى بعض الثقات في موضوع الولادة وأمراض النساء وجوب انقضاء سنتين الى ثلاث سنوات بين ولادة وأخرى حتى لا تتعرض صحة الأم للخطر . واليك ما تقولهُ سيدة حالتها تمثل ألوف الحالات : « لا أزال في الثانية والعشرين من عمري ولكنني أم خمسة أولاد فقد ولدت ولداً كل سنة من حين زواجي الى الآن . لن أستريح قط وأشعر ان صحتي آخذة في الانحطاط يوماً بعد يوم » . وكتبت أخرى : « أنا اليوم أم ستة أولاد وقد أجهضت مرتين . عمر ابني الكبير اثنا عشرة سنة ولكنهُ مصاب باعاقة منذ ولادته اما أولادي الخمسة الباقون فضعاف صفر الوجوه وعلي أن آخذهم للطبيب كثيراً واحدى ابنتي عوراء . لقد حاولت ان أبتعد عن زوجي قدر المستطاع منذ ولادة ابني الأصغر ولكن ذلك يؤدي الى ما لا تحمد عقباهُ في سلام البيت وهناءته » . وهذان المثلان نقلناهما عن مجلة تعارير الاميركية . وقد أثبت الدكتور ادلفوس ڤف من أطباء مدينة نيويورك ان آخر المواليد في الأسر الكثيرة يكونون أضعف المواليد بنية وأكثرهم تعرضاً للاصابة بالسل . وعندهُ ان الام تكون قد أجهدت صحتها في الولادات الأولى فتورث ولدها الأخير — أو أولادها — ارثاً فسيولوجياً ضعيفاً لا يمكنهم من مقاومة الآفات الصحية . أضف الى ذلك ان ازدياد الاولاد يقلل نصيب كلٍّ منهم من دخل رب الاسرة . فتضطر الأسرة ان تسكن في احياء قذرة مزدحمة لا تدخل الشمس يوماً وان تكتفي بالطعام الرخيص وبالكساء الذي لا يقي البرد . ومن رأي الرئيس هوفر ان كل طفل أميركي لهُ الحق في ان يتلقى من والديه

جسمًا سليماً وعقلاً سليماً وان يولد في وسط صحي تتوافر فيه أسباب العناية » . ويضيف الى ذلك احد رجال الكنيسة في اميركا « ان الاسرة الكبيرة في الطبقات الفقيرة ليست من ارادة الله ولكنها من خرق الاجتماع » . ويقول الحاخام سيفن وزميل اكبر رجال الدين اليهودي في اميركا : « ان الموقف الديني ازاء الحياة لا يقضي باكثار النسل اذا لم يكن في وسع الوالدين ان يعطوا كل ولد من العناية الصحية والتهذيبية ما يجعل للحياة قيمة في عينيه »

اذاً تحديد النسل يفيد الامّ ، لانهُ يمكنها من ان تحتفظ بصحتها ونضارتها ، وهذا يمكنها من العناية بشؤون دارها وزوجها وأولادها والقيام على تربيتهم وتهذيبهم بما يقتضيه ذلك من العناية الدقيقة المستمرة والنصب الدائم . وهو كذلك يفيد الاولاد ، صحيًا واجتماعيًا ، اما صحيًا فلأنّ الطفل الذي يولد من امّ قوية ليس كالطفل الذي تلدهُ امّ أنهكتها آلام الحمل والطلق والولادة . واما اجتماعيًا فبتوافر وسائل الغذاء والكساء والتعليم والتهذيب

وهو كذلك يفيد الاجتماع اذ يستطيع القضاء بمرض وراثي ان يكفي ميولهُ في نطاق الزواج الشرعي من غير ان يكون سبباً في ولادة اولاد مشوهين او مصابين بامراض يقولون قول المعرّي

هذا جناهُ ابي عليّ وما جنيت على احد

وهو يفيد الاجتماع من ناحية اخرى هي الناحية السياسية فيساعد على منع الحروب بين الامم الكثيرة الولد التي تطلب التوسع لتجد لسكانها ميداناً يعملون فيه ويرتزقون منهُ وهذا التوسع يؤدي في الغالب الى اصطدام المصالح الدولية ويفضي الى الحرب او يهدد بوقوعها . وقد قال الواعظ الاميركي الشهير الدكتور فوزدك « لا تستطيع ان تضع تلك مارب و تام خالي البال اذ سمحت لسكان الارض ان يتضاعفوا كل ستين سنة »

اما نقاد هذه الحركة فيرون رأي اصحابها في الشرور الصحية الكثيرة التي تنجم عن كثرة الولادة ، ولكنهم يرون « ضبط النفس » لا « تحديد النسل » خير سبيل لمعالجة الحال . على ان هذا في رأي الفريق الاول متعذر ، حتى ولو اتفق الزوجان على تحقيقه لان العلم لم يكشف حتى الآن عن وقت معين لا يحدث فيه الحمل الا في اثناء الحمل . فاذا شاء الزوجان ان لا يلد لها ولد الا مرة كل ثلاث سنوات أفيعقل ان يكون « ضبط النفس » حينئذٍ وسيلة لمنع هذه الشرور ! ويرى طبيب من مقام الدكتور وليم الن بيوزي رئيس الجمعية الطبية الاميركية ان محاولة تقليل عدد الاولاد « بضبط النفس » يعرض السعادة الزوجية للاصطدام على صخرة ناشزة الانياب . ومما يقال في نقد هذه الحركة ان وسائل تحديد النسل تؤذي الانسان وتسبب السقم . ولكن الاطباء الذين بحثوا هذا الموضوع بحثاً استقرائيًا يؤكدون ان استعمال الوسائل التي اقرّها الاطباء لا تحدث شيئاً من الاضرار المشار اليها . الا ان هذا الرأي الاخير مختلف فيه بوجه عام

ويعترض فريق آخر من النقاد بقولهم ان شيوع وسائلها يكون مقدمة لفساد الآداب الجنسية وانحلالها . ولكن الدكتور بيوزي يرى ان الحالة الحاضرة أبعث على فساد الآداب الجنسية لانهُ يعتقد ان الجهل بوسائل تحديد النسل يفضي الى كثير من الاضطرابات العائلية فيبحث الرجال عن طريقة غير مشروعة لاكفاء ميولهم

على ان اقوى حجج المقاومين هي أثر شيوع هذه التعاليم في الشبان والشابات . وهذه الحجة تمنع طائفة كبيرة من المتعلمين عن تأييد هذه الحركة ان لم نقل انها تحملهم على مقاومتها . فيرد انصارها عليهم بقولهم ان علماء السيكولوجيا قد أثبتوا ان النواهي لا تحمي حتى الفضيلة والآداب . ويجب ان تبحث عن طريقة اخرى كالتربية الصالحة تلم بها الاحداث الاعتصام بالفضيلة الجنسية غير النهي والمنع . أضف الى ذلك أن دعاة هذه الحركة يريدون ان يشجعوا الشبان والشابات على الزواج الباكر بازالة اكبر موانعه وهو الخوف من كثرة الاولاد التي تضعف المرأة وترهق جيب الرجل . يرون ان الزواج الباكر أفضل الطرق لمحاربة هذه الشرور الاجتماعية

اما دعاة هذه الحركة فقد نالوا من المقاومة والاضطهاد ما ينتظر لكل حركة تناقض اغراضها ما تواضع عليه الناس قروناً متوالية واحلوه في نفوسهم وعقائدهم في المحل الاقدس . واشهر هؤلاء رئشرد كارليل (١٨٣٠) وفرنسيس بلابس (١٨٣١) وروبرت وايل ون (١٨٣٢) والدكتور نوتن وجميعهم من المؤلفين الذين عنوا بوضع كتب في الموضوع من وجوهه الفسيولوجية والاجتماعية والفلسفية . وفي سنة ١٨٥٤ نشر الدكتور جورج درسديل كتاباً عنوانهُ اصول العلم الاجتماعي بسط فيه الملتوسية (نسبة الى الاب ملتوس) الجديدة ثم انشأ بالاشتراك مع اخيه وحنة بزانت رائدة الفلسفة التيوصوفية عصبة لبث هذه التعاليم . وفي سنة ١٨٧٦ قبض البوليس على بائع كتب لبيعه نسخاً من كتاب الدكتور نولتن المدعو ثمار الفلسفة . فأقام الدكتور برادلو وحنة بزانت نشر الكتاب وتقدما للمحاكمة سنة ١٨٧٧ فحكم المحلفون عليهم على الرغم من ميل القاضي للاخذ بأدلتهم فكانت هذه الحادثة وسيلة لاذاعة التعاليم الملتوسية الجديدة ومن ثم اخذت « العصبة الملتوسية الجديدة » تقوى وتمدُّ آثار دعوتها الى انحاء الكرة الارضية وأنشئت لذلك جريدتان في انجلترا . واسست فروع للعصبة في مختلف البلدان . وقد عقد اتحاد هذه الفروع مؤتمرات دولية اولها في باريس سنة ١٩٠٠ ثم في لياج سنة ١٩٠٥ ثم في الهاي سنة ١٩١٠ ثم في درسدن سنة ١٩١١ ثم في لندن سنة ١٩٢٢ ثم في نيويورك سنة ١٩٢٥ . اما تاريخ هذه الحركة في اميركا فيختلف قليلاً عن تاريخها في انكلترا لان الاميركيين كانوا اشد وطأة في مقاومتها وقد سنوا لذلك قانوناً يقضي على كل من يرسل رسالة بالبريد تحتوي على وصف وسائل تحديد النسل بغرامة الف جنيه وسجن خمس سنين . وأشهر القائمات بهذا العمل في اميركا السيدة مرغريت ساينجر التي استنبطت لفظتي « تحديد النسل » لوصف اغراض الحركة سنة ١٩١٤